وَقْفاتٌ مع كتاب "التّواصل الفكري والرّوحي" للأستاذ الدكتور: السّعيد لمليح.

أ.د عبد الواحد عبد السلام شعيب*

إنّه لشرفٌ كبيرٌ لي أن أقوم بقراءة ومراجعة عملٍ علميٍّ قيّمٍ لباحثٍ جادٍّ وكاتبٍ دءوبٍ ألا وهو **الأستاذ الدكتور: السعيد لمليح، أستاذ التاريخ الإسلامي الوسيط بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة مولاي إسماعيل بالمملكة المغربية الشّقيقة**، الذي أتحف المدرسة التاريخيّة بمصنّفه الرّائع "**التّواصل الفكري والرّوحي بين المغرب الأقصى والمشرق الإسلاميّين (مصر والحجاز) أسسه ومظاهره، من بداية القرن السّابع إلى أواخر القرن الثامن الهجريّين**"، محرزاً بذلك قصب السّبق في تقحّم هذا الميدان الشائك، وسبر أغواره.

فالباحث كان موفّقاً إلى حدٍّ كبيرٍ، في اختيار هذا الموضوع المهم، ومعالجته بالبحث الدراسة من ناحيةٍ، ثم بطريقته ومنهجيته الرّصينة، التي سلكها في جمع ولملمة مادّته، واستنطاق نصوصها، وتحليل مضامينها من ناحيةٍ أخرى، الأمر الذي تمكّن من خلاله الوصول إلى جملةٍ من النتائج والخلاصات، في كافّة أقسامه وفصوله، عبّرت بجلاءٍ عن الجديد فيه.

وهكذا فلما كانت مسألة استقراء فحوى هذا الكتاب الضّخم- الذي أنافت صفحاتُه عن السّبعمائة- وإمكانيّة التّعليق عليها، لا يمكن بأيّ حالٍ من الأحوال أن تستوعبها مثلُ هذه المقالة المركّزة، لذا فإنّي ارْتَأَيتُ أن أوجزها في الفقرات التالية:

1- أنّ هذا الكتابَ قد اعتمد على كمٍّ هائلٍ من المصادر والمراجع، سواءٌ المغربية منها أم المشرقية، إذ تنوّعت مادّته المصدريّة، بين كتب الحوليّات، وكتب التاريخ العام، والتاريخ المحلّي، والسِّيَر الذّاتية، وتواريخ الأدب، وكتب التّراجم والطّبقات، وكتب الفهارس والبرامج والمشيخات، وكتب الجغرافيا والرّحلات، وكتب المناقب والكرامات، وكتب النّوازل الفقهية، وكتب القضاء والحِسبة، والدّواوين الشّعرية، وغيرها.

والرّاجح أن السّببَ الذي أتاح للمؤلّف التعامل مع هذه المصادر المتعدّدة والمتباينة، هو التطوّر الكبير الذي شهدته حركة الكتابة التاريخيّة، سواءٌ في المشرق أم في المغرب، إبّان القرنين السّابع

* أستاذ التعليم العالي في التاريخ والحضارة الإسلامية- كلية الآداب- جامعة طرابلس- ليبيا.

والثامن الهجريّين ـــ الثالث والرابع عشر الميلاديّين، اللّذين عرفا ظهور عددٍ كبيرٍ من المؤرّخين اللاّمعين، وإنتاجهم التاريخيّ الغزير.

2- كان لامتلاك المؤلّف للّغة الرّصينة، والأسلوب السّلس، أن جعل من مادّة الكتاب واضحةً وسهلةً، فضلاً عن أنه أكسبها طلاوةً وعذوبةً.

3- إن من مَيْزات هذا الكتاب أن استخدم فيه صاحبُه، المنهجَ الاستقصائيَّ في التأريخ للأعلام، أو السّلاطين والحكّام، وللمؤسّسات التعليميّة، وللرباطات والزّوايا الصّوفية، بحيث ذيّل كلَّ فصوله بجداولَ شاملةٍ ودقيقةٍ، لكلّ ما خصّه وعالجه بالدّراسة في هذا الشّأن.

4- تُعَدُّ هوامشُ الكتاب غنيةً بالمادّة المعلوماتيّة، التي تُظهِرُ مدى دقّة المؤلِّف في تقصّي جزئيّات بحثه، فضلاً عمّا ضمّنها كذلك من تعليقاتٍ وإضافاتٍ جيدةٍ.

5- كذلك فإن تحلّي المؤلِّف بالأمانة العلميّة في التعامل مع موارد كتابه، جعل منه مرجعاً مهمًّا، لا يستغني عنه أيُّ باحثٍ لدراسة تاريخ وحضارة المشرق والمغرب الإسلاميّين في الحقبة الوسيطيّة.

6- يبدو أن المؤلِّفَ قد تأثّر في هذا الكتاب بطرائقَ ومنهجياتِ بعض المؤرّخين المعاصرين لفترة دراسته، أمثال ابن خلدون، وابن الخطيب، وابن عذاري، والمقريزي، وابن تغري بردي، وغيرهم، بحيث جمع في كثيرٍ من الأحايين بين التاريخين السّياسي والثّقافي، وهو ما أعطى لكتابه قيمةً وزخماً كبيرين.

7- من القضايا الجديرة بالتّنويه في هذا الكتاب، هو دأبُ صاحبه على استعماله للمنهج المقارِن كلما تسنّى له ذلك، ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر، ما أورده في حديثه عن العلاقات بين المرينيّين في المغرب، والمماليك في المشرق، وذلك في قوله: ((علماً بأن ما يشغل الدولتين معاً "المملوكية والمرينيّة" يكاد يكون متشابهاً فإذا كان المماليك يواجهون الصليبيّين والمغول في بلاد الشام، فإن المرينيّين، وبني الأحمر يحاولون إيقاف هجمات نصارى الأسبان في شبه جزيرة أيبيريا))[1].

8- ولعلّ من محاسن هذا الكتاب أيضاً أنه ركّز على عمليات التأثير والتأثّر، في دراسة موضوع: **"التّواصل الفكريّ والرّوحيّ بين المغرب الأقصى والمشرق الإسلاميّين (مصر والحجاز) خلال القرنين السّابع والثامن الهجريّين"**، مثل ما جاء فيه: ((إذا علمنا أن معظم سفراء ملوك بني الأحمر، وأمراء الحجّ وغيرهم، كانوا يحضرون المجالس العلميّة، في أثناء مرورهم بأرض الكنانة، وفي أثناء أداء فريضة الحجّ فيستفيدون ويُفيدون))[2].

9- من اللاّفت للانتباه في هذا الكتاب، هو دُرْبَةُ صاحبه على تحليل النصوص وتفسيرها، وبخاصّةٍ في دراسته لبعض الرّسائل الملوكية المغربية الموجّهة إلى المشرق، حيث جاء في إحداها قوله: ((ويُفْهَم من مناقب السّلطان أبي الحسن ــ "ملك بني مرين"ــ أنه كان مُحِبًّا لكتاب الله العزيز، مُعْتَنِياً بدراسته وتدريسه في المعاهد العلميّة، والمساجد كما كان مهتماً بنشر المذهب المالكيّ، ليس في بلاده فحسب، ولكن أيضاً خارج بلاده، خصوصاً في المساجد المقدّسة، وهذا ما تؤكّده الرّسالة في قولها: وقد عيّنا من المال، ما يُشْتَرى به في تِلْكُمُ البلاد المحوطة من المستغلات، ما يكون وقفاً على القرّاء فيه "أي المصحف" مؤبّداً عليهم، وعلى غيرهم من المالكيّة))[3].

10- اهتمام المؤلِّف في هذا المصنّف بأهميّة دور الرّحلة بين المغرب والمشرق، في التأطير العلميّ للعلماء ورجال الفكر، إذ جعلها عنصراً فاعلاً في تكوين شخصية العالم وصقلها، وهذا هو ما أكّد عليه ابن خلدون في المقدّمة، حين قال: ((فالرّحلة لابدّ منها، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ، ومباشرة الرجال))[4].

ولكن بالرّغم من هذا كلِّه، فإنّ هناك ملاحظةً مهمّةً في هذا الصّدد، وهي أن بعض كبار الشيوخ والأعلام الأندلسيّين والمغاربة، لم تكن لهم رحلةٌ إلى المشرق، أمثال: العلاّمة أبو محمد بن حزم[5] (ت456هــ) والعالم الكبير أبو عمر بن عبد البرّ الحافظ[6] (ت463هــ)، اللّذين عوّضا هذا الجانب بكثرة الأخذ عن شيوخ الأندلس، وعلى الأخصّ الرّاحلين منهم إلى المشرق، فضلاً عمّا يمتلكانه من فرط الذكاء والفهم، وبكثرة القراءة والاطّلاع، والاعتكاف والتشاغل بالعلم دهرهما.

ومن هؤلاء كذلك حافظ المغرب الكبير القاضي عياض السّبتي[7] (ت544 هــ) والذي اقتصر على الرّحلة إلى الأندلس دون المشرق، ولكنّه كان أوحد زمانه، وفريد عصره، علماً ودرايةً[8].

11- إيراد المؤلّف في هذا الكتاب، لعددٍ من النّصوص النّقدية لبعض المؤرّخين الذين هم من شرط كتابه، وذلك مثل شهادة ابن خلدون في السّلطان المملوكيّ تيمور لنك التي يقول فيها: ((وهذا الملك تيمور من زعماء الملوك وفراعنتهم، والناس ينسبونه إلى العلم، وآخرون إلى اعتقاد الرّفض، لما يرون من تفضيله لأهل البيت، وآخرون إلى انتحال السحر، وليس من ذلك كلّه في شيءٍ، إنما هو شديد الفطنة والذكاء، كثير البحث واللّجاج بما يعلم، وبما لا يعلم)) [9].

12- من الإشارات القيّمة التي ضمّنها المؤلِّفُ في كتابه، هو إسهام بعض المؤرّخين المغاربة في حركة الكتابة التاريخيّة بالمشرق، ومن هؤلاء: المؤرّخ عبد الرحمن بن خلدون، صاحب كتاب

(العبر) و**(المقدّمة)** وعبد الواحد المراكشي صاحب كتاب **(المعجب في تلخيص أخبار المغرب)** والتقيّ الفاسي[10]، الذي ولي قضاء المالكية بمكة المكرمة، وألّف فيها كتابه الشهير **(العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين)** ثم المؤرّخ أحمد المقّري التلمساني، صاحب **(نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب)** و**(أزهار الرياض في أخبار عياض)** و**(زهرة الآس في ذكر من لقيته من أهل الحضرتين مرّاكش وفاس).**

والمقّري هذا يُعدّ أحد رموز التّواصل العلميّ والفكريّ بين المغربين الأوسط والأقصى، من ناحيةٍ، وبين بلاد المغرب والمشرق الإسلاميّين من ناحيةٍ أخرى.

يُضاف إلى ذلك أن المؤلِّفَ قد لّمح إلى أهمية بعض المؤلَّفات التي خصّصها بعض الرّحّالة المغاربة في موضوع الصِّلات العلميّة بين كلٍّ من المغرب وأفريقية، ومصر والشام والحجاز، ومنها رحلة ابن رشيد السّبتي المسمّاة **(ملء العيبة، فيما جمع بطول الغيبة، في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة)** الذي ذكر فيها شيوخه وتلامذته، والإجازات التي حصل عليها في هذه البلاد.

13- توفّر الكتاب على عددٍ من النّصوص التاريخيّة النّادرة، التي تسنّى لصاحبه جمعُها عن طريق بحثه وتنقيبه وتنقيره في المصادر والمظانّ، التي عوّل عليها في تصنيفه، ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر، ذلك النّص الطّريف، الذي نقله من المقّري التلمساني في **(نفح الطيب)** والمتمثّل في تلك الرسالة التي بعث بها سلطان المغرب، أبو الحسن المريني، إلى السلطان المملوكي عماد الدين إسماعيل، والتي تداولها المهتمّون بالقراءة والرّواية والإجازة، وكذلك الرسالة المملوكيّة التي جاءت ردًّا عليها، ومن هؤلاء: عزّ الدين أبو يعلى بن الشيخ السّلامية الحنبلي، الذي رواها عن منشئ الرسالة المملوكيّة الصّلاح الصّفدي[11]، صاحب كتاب **(الوافي بالوفيات)** في تاريخ التّراجم.

14- مما يؤكّد عناية الباحث بتتبّع جزئيات موضوع كتابه، والحرص على إغنائها بحثاً ودراسةً، معالجته لعددٍ من الجوانب التي لم تُولِ اهتمام الكثير من الباحثين، ومن بينها موضوع المرأة المغربية، التي أعطاها شيئاً من الخصوصية في هذا الكتاب، وذلك بكشفه النّقاب عن الدّور المهمّ الذي قامت به في تعزيز علاقات الودّ والصّداقة بين المرينيين في المغرب، والمماليك في مصر، إذ يقول المؤلِّف في حديثه عن الرّكب المغربيّ إلى الحجّ زمن السلطان أبي الحسن المريني: (وكان ممّا بعثه أبو الحسن المريني مع الرّكب الأميرةُ الحرّةُ (مريم) ومعها عددٌ من نساء الدولة، وأحظياتها)[12] وذلك نقلاً عن القلقشندي في كتابه **(صبح الأعشى).**

كما عدّد المؤلِّف من جهةٍ أخرى مناقب والدة أبي الحسن المرينيّ المسمّاة **[العنبر]** نقلاً عن ابن مرزوق الخطيب في كتابه (**المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن**)، حيث قال: ((فكان فيها الرّأفةُ والرّحمةُ والشّفقةُ على الخليفة، ما قضى منه العجب، فكم جهّزت من يتامى، وكم زوّجت من أيامى، وكم بذلت من صدقاتٍ ...))[13].

15- من الجوانب الإيجابيّة في هذا الكتاب، هو أنّه يضمّ بين دفّتيه جملةً من النتائج والخلاصات المهمّة، التي توصّل إليها المؤلِّفُ في دراسته، وبخاصّةٍ في نهاية كل فصلٍ ومبحثٍ، بحيث سهّل على القارئ فهم واستيعاب ما كان يسعى إلى تحقيقه والوصول إليه، في هذا العمل العلميّ القيّم، ومن أمثلة ذلك ما عبّر عنه في موضوع الرسائل المتبادلة بين ملوك بني مرين في المغرب، والمماليك في المشرق، في قوله: ((أن الرّسائل المتبادلة بين الدولتين، كانت تتميز بمستوى رفيعٍ من التعبير اللّغوي، فضلاً على كونها تضمّ معلوماتٍ مختلفةً حول أوضاع المغرب والمشرق، قد لا نجدها في مصدرٍ آخر، على اعتبار أنها بمثابة وثائقَ رسميةٍ صادرةٍ عن السّلطات العليا))[14].

ومنها تعليقه على تآليف المؤرّخ المغربيّ التقيّ الفاسي (ت 832هـ) قاضي المالكية في مكّة المكرمة، الذي صنّف كتابَيْ: (**العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**) و(**شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**) حيث يقول عنهما: ((إنّ تأليف الكتابين المذكورين... يُظْهِرُ مدى الأهمّية التي أولاها العلماء المغاربة بتاريخ الأماكن المقدّسة في الحجاز، ومدى مساهمتهم في التّواصل الفكريّ والاجتماعيّ بين المغرب والمشرق الإسلاميّين، إذا علمنا أن الكتابين المذكورين، تناولا بكثيرٍ من الدّقة والتّفصيل التاريخَ الحضاريَّ بمكّة المكرمة، فضلاً على تراجمَ وافيةٍ لعددٍ كبيرٍ من المسلمين الذين حجّوا إلى الدّيار المقدّسة بما في ذلك العلماء المغاربة))[15].

أما بخصوص دور ربط مكّة المكرمة في التّواصل الرّوحي بين المغرب وبلاد الحجاز، فإنه قد أكّد على أنها أسهمت إسهاماً فاعلاً في توفير الجوّ الملائم للحجّاج والطلبة والمتصوّفة المجاورين، والعلماء الطارئين، والرّحالة من كل الآفاق، لا بل وحتى المغتربات والمتصوّفات والعالمات من النّساء، لوجود رباطاتٍ خاصةٍ بهنّ، وهو ما ساعده بدوره، على تمتين حركة التّواصل الثقافيّ والرّوحي بين المسلمين مشرقاً ومغرباً[16].

وفيما يتعلّق بميدان التأليف والتّصنيف العلميّ، فإن المؤلِّفَ قد ضمّن كتابَه نتيجةً مهمّةً جاء فيها: ((أن المغاربة أسهموا مساهمةً فعّالةً في تبادل الكتب العلميّة بين المغرب والمشرق، فقاموا بجلب الكتب المختلفة المشارب، من المشرق إلى المغرب، كما قاموا بحمل كتبهم من المغرب إلى

المشرق، وهذا ما يفسّر الدور الإيجابيّ الذي لعبوه في مدّ الجسور الفكريّة والثقافيّة، بين بلاد المشرق والمغرب الإسلاميّين))[17].

ولكن هنا يمكن أن نضيف نقطةً أخرى في هذا الشأن، وهي أن الكثير من المؤلَّفات والمصنَّفات المشرقيّة التي جِيءَ بها إلى المغرب، قد فَتحَتْ مجالاً خصباً للتأليف عند المغاربة، عندما قاموا بشرحها أو التّذْيِيل عليها، أو بالتّأليف على منوالها، وكذلك الحال بالنسبة للكتب المغربيّة التي وصلت إلى المشرق، ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر، موسوعة حافظ المغرب الشّهير القاضي عياض (ت544هـــ) **(ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب مالك)** في تراجم أعلام المالكية، الذي قام بتَذْيِيله عالمُ المدينة برهانُ الدين بنُ فرحون (ت799هـــ) في القرن الثّامن الهجريّ- الرّابع عشر الميلادي، بمؤلَّفه القيّم **(الديباج المُذَهّب في معرفة أعيان علماء المَذْهَب).**

و لم يكتفِ ابنُ فرحون بالتأسّي بالقاضي عياض، والسّير على هديه في التّرجمة لأعلام المذهب المالكيّ وحسب، بل اعتمد عليه اعتماداً كلّياً في العديد من فصوله سواءٌ بالنقل الحرفيّ، أم الاختصار، حتى اعتبر كثيرٌ من الباحثين أن ديباج ابن فرحون، ما هو إلا واحدٌ من اختصارات[18] **(المدارك)**، ولذلك يقول ابن فرحون في مقدّمة كتابه: ((وبدأتُ بمقدّمةٍ تشتمل على ترجيح مذهب الإمام مالك، والحجّة في وجوب تقليده، ملخصاً من كلام الإمام أبي الفضل عياض بن موسى، رحمه الله، في مقدّمة كتابه المسمّى بـــ**(المدارك)**، وأَتْبَعْتُ ذلك بذكـــر الإمام "مالك بن أنس" رضي الله عنه، والتّعريف بنبذةٍ يسيرةٍ من أحواله، ومن أراد الوقوف على شفاء الغليل، فعليه بما ذكر القاضي عياض في **(المدارك)** [19].

ولما كان المؤلِّفُ قد أتحفنا ببعض النّصوص النّادرة في كتابه هذا، مثل ذلك النّص الفريد الذي احتفظ به صاحبُ **(نفح الطيب)** والمتمثّل في الرّسالتين المرينيّة والمملوكيّة[20]، اللتين نالتا إقبالاً أدبياً وبلاغياً كبيرين في المجالس الأدبيّة والعلميّة بالمشرق الإسلاميّ، إذ تداولها المهتمّون بالقراءة والرّواية والإجازة[21]، ومنهم عزُّ الدين أبو يعلى بن الشيخ السُّلامية الحنبليّ، الذي رواهما عن منشئ الرّسالة المملوكيّة، الصّلاح الصّفدي[22]، صاحب كتاب (الوافي بالوفيات).

لذا فإنه بناءً على ما تقدّم، يمكن أن نستنتج كذلك أن أحمد المقّري التلمساني (ت1044هـــ) صاحبَ **(النّفح)** و**(الأزهار)** قد أرّخ لشيءٍ من العلاقات بين المرينيّين في المغرب الأقصى، والمماليك في مصر، على الرّغم من أن موسوعته **(نفح الطيب)** تختصّ بتاريخ الأندلس وحضارتها، وسيرة أديبها ووزيرها لسان الدّين بن الخطيب؛ لأن احتفاظ المقّري بمثل هذه الرّسائل والوثائق

النّادرة، هي من مَيْزات كتابته التاريخيّة، التي فاق بها غيره من المؤرّخين الآخرين وديدنه في هذه الموسوعة الحافلة، وذلك كاحتفاظه **برسالة العلاّمة ابن حزم في فضل الأندلس وذكر رجالها**[23]، **ورسالة ابن سعيد المغربي**، التي ذيّل بها هذه الرّسالة، ثم **رسالة أبي الوليد الشّقندي في تفضيل الأندلس على برّ العدوة.**

16- وأخيراً فإنّه لا بدّ من الإشارة إلى بعض الهفوات أو الانزلاقات، التي وردت في هذا الكتاب المهمّ، والتي هي لا تقلّل من قيمته، ولا تُنقِص من شأنه، وإنما تظلّ عمليّة التّنبيه إليها، وإمكانية استدراكها، هو عملٌ علميٌّ متمِّمٌ، إذ إنّ علماءنا الأوائل، كانوا عندما يؤلّفون كتاباً أو يصنّفون عملاً علمياً، فإنّه كثيراً ما يتصدّى بعض الباحثين والمؤلّفين الآخرين، لقراءته ومراجعته، ثم تبيين ما به من بعض الهنات، أو بعض الأخطاء، أو القصور، مع الإلماع إلى تصويبها وتصحيحها، حتى تعمّ الفائدة، وتؤدي هذه التآليفُ والمصنّفاتُ، غرضها الأساسي، وهدفها الأسمى الذي أُلِّفت من أجله.

فبالنّسبة لعنوان كتاب المقّري التلمساني **(نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب)**، الذي خصّصه لدراسة تاريخ الأندلس وحضارتها، فإن المؤلّف قد أنحى باللاّئمة على المقّري في عدم تحديده للمجال الجغرافي لهذا الكتاب، تحديداً دقيقاً، وذلك في قوله: ((وعلى هذا الأساس فإنّ استعمال المقّري لمصطلح **[الأندلس]** غير دقيقٍ، إذ لا يذكر المغرب إلا نادراً))[24].

فالمؤلّف هنا، حاول الجمع بين بلاد العُدْوَتَيْن، الأندلس والمغرب معاً في هذا الكتاب، إذ يقول في نصٍّ آخر: ((فالمقّري مثلاً أورد في كتابه **(نفح الطيب)** مئات المغاربة والأندلسيّين الذين توجهّوا إلى المشرق الإسلاميّ، لأغراضٍ مختلفةٍ، ومع ذلك يعترف بقصوره وعجزه عن استيعاب كل من كانت له رحلةٌ))[25].

وهكذا فإنه على الرّغم من هذا الحكم الذي أصدره المؤلِّفُ على المقّري في **(نفحه)**، فإنّنا نراه قد تراجع عن ذلك في موضعٍ آخرَ، عندما قال: ((وقد سبقت الإشارةُ إلى القول بأن المقّري، قد تعرّض في كتابه **(نفح الطيب)** للكثير من العلماء والطلاّب والحجّاج وغيرهم، الذين توجّهوا إلى المشرق، بحيث خصّص الجزء الثاني من موسوعته، في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيّين إلى بلاد المشرق، قصد الحج والزيارة، وطلب العلم، أو السياحة الصوفيّة))[26].

إذن يتضح لنا هنا أن المؤلِّفَ، قد استدرك بنفسه على حكمه السابق، وأنصف المقّري فيما ذهب إليه، إذ إنّ الأخير قد افتتح الباب الخامس من موسوعته قائلاً: ((في التعريف ببعض من رحل

من الأندلسيّين إلى بلاد المشرق الزّاكية العرار والبشام، ومدح جماعةٍ من أولئك الأعلام، ذوي العقول الرّاجحة والأحلام ...)) [27].

أما فيما يتعلق ببعض العلماء الذين تحدّث عنهم المؤلِّفُ، وجعلهم من شرط كتابه، وهم ليسوا كذلك، فمنهم: العالم الأندلسيُّ الكبير أبو بكر بن العربي، الذي أدرجه تحت عنوان **(الرّحلة العلميّة)**، وذلك في قوله: ((ومن هؤلاء العلماء الذين ارتحلوا إلى المشرق لطلب العلم: القاضي أبو بكر بن العربي، الذي يمكن اعتباره- حسب الباحث كراتشكوفسكي- أول من وضع الأساس لفنّ الرّحلة العلميّة...))[28].

بَيْدَ أن نقّادة الأندلس وعالَمِها ابنَ العربي هذا، هو من أعلام القرن السادس الهجريّ- الثاني عشر الميلادي؛ لأن وفاته كانت في سنة 543هـ، وعليه فهو لم يدرك القرن السّابع الهجريّ على الأقل، ليكون من شرط هذا الكتاب الذي خصّص لدراسة **"التّواصل الفكريّ والرّوحيّ بين المغرب الأقصى والمشرق الإسلاميّين (مصر والحجاز) خلال القرنين السّابع والثّامن الهجريّين"**، ومن ثَمَّ فلا يمكن أن ندرجه ضمن الأعلام المغاربة، الذين ارتحلوا إلى المشرق، لطلب العلم إبّان هذين القرنين وذلك لسببين اثنين:

أولهما: أنّه متقدّمٌ جدًّا عن عصر الدّراسة؛ لأنّه توفي كما أسلفنا سنة 543هـ، وليس كما ورد في هذا الكتاب- ولعلّه خطأٌ مطبعيٌّ- سنة 534هـ.

وثانيهما: أنه عالمٌ أندلسيٌّ، وعاد بعد رحلته إلى المشرق إلى بلده الأندلس بعلمٍ كثيرٍ، حيث استقرّ بمدينة أشبيلية ونشر علومَه فيها.

أما قوله أن ابن العربي قد سبق أن سمع من علماء الأندلس والمغرب، قبل رحلته إلى المشرق، فإنّ هذا غير دقيقٍ؛ لأن هذا العالم الفذّ لم يأخذ ويسمع إلا من شيوخ الأندلس دون غيرهم، قبل توجّهه إلى المشرق، حيث لم يأتِ إلى المغرب إلا في السّنوات الأخيرة من عمره، عندما قامت دولةُ الموحّدين على المرابطين، فانتقل إلى مدينة فاس، وأخذ بها عنه جماعةٌ[29] من طلبة العلم وروّاده، حتى وفاته عام 543هـ.

وفيما يختصّ ببعض التّواريخ التي وردت في الكتاب، وتحتاج إلى شيءٍ من التّصويب؛ لأنها لم تكن دقيقةً، فهي قليلةٌ ومنها: سنة وفاة العالم الأندلسيّ، نزيل الإسكندرية، أبو بكر الطرطوشي، إذ جاء في الصفحة رقم (128) بأنه توفي سنة 521هـ، ولكنّ الصحيحَ هو السنةُ التي قبلها، أي سنة 520هـ، كما ورد ذلك عند القاضي عياض في فهرسة شيوخه **(الغنية)**[30]، وكذلك في

مشيخة شيخه القاضي أبي علي الصّفدي **(ابن سكرة)** شهيد وقعة قتندة[31] سنة 514هـ، والتي نقلها عنه ياقوتُ الحمويُّ في **(معجم البلدان)**[32].

ومنها كذلك سنة وفاة الرّحّالة المغربيّ الشّهير ابن بطوطة، التي ذكرت في صفحة (61) بأنها في سنة 770هـ، في حين أن التاريخَ الصحيحَ لوفاته هو سنةُ 779هـ، وهو ما أجمع عليه المؤرِّخون وأصحابُ التّراجم.

وفي الختام يمكن أن نلمّح إلى مسألةٍ مهمّةٍ، استرعت انتباهَنا في هذا الكتاب، وهي عدم التطرّق إلى عالمٍ كان له دورٌ فاعلٌ في تمتين حركة التّواصل الثّقافيّ والفكريّ، بين جَنَاحَيْ العالم الإسلاميّ، مشرقه ومغربه، في القرن الثامن الهجريّ- الرّابع عشر الميلاديّ، ألا وهو: أبو عبد الله محمد بن جابر[33] الوادآشي[34] الأندلسيّ (ت749هـ) الذي جَالَ في البلاد المشرقيّة والمغربيّة، واستكثر من الرّواية، ونقّب عن المشايخ، وقيّد الكثير، حتى أصبح جمّاعةَ المغرب، ورَاوِيةَ الوقت[35]، كما يقول تلميذُه ابنُ فرحون المالكي (799هـ) صاحبُ **(الديباج المذهّب)** الذي ذيّل به موسوعة القاضي عياض **(ترتيب المدارك)**.

غير أنّ ابن جابر الوادآشي هذا، تكمن أهميته في هذه الدّراسة لعدّة أسبابٍ منها:

أ- أنه يُعتبَرُ أحدُ كبار الحفّاظ- أي علماء الرّواية والدّراية- الذي كان إليه المَفْزَعُ في هذا العلم، مشرقاً ومغرباً؛ لأن مـؤرِّخَ الإسـلام، وشيخَ الحفّـاظ شمسَ الدين الذّهبي (ت 748هـ) يقول عن علم الحديث في هذه الآونة: ((وقد قلّ من يعتني بالآثار ومعرفتها في هذا الوقت، في مشارق الأرض ومغاربها، على رأس السبعمائة، أما المشرق وأقاليمه فغلق الباب، وانقطع الخطاب، والله المستعان، وأما المغرب وما بقي من جزيرة الأندلس، فيندر من يعتني بالرّواية كما ينبغي، فضلاً عن الدّراية))[36].

ب- أن ابن جابر الوادآشي، كان عالماً ورحّالةً في آنٍ واحدٍ، وقد أفاد منه طلبةُ العلم، في المشرق والمغرب، على حدٍّ سواءٌ، حيث حدّثَ بمصرَ، والشام والحجاز، وبلاد المغرب، وكان قد انفرد بالديّار المصريّة، بعلوّ الموطّأ، من رواية يحيى بن يحيى الليثي[37]، أي بمعنى آخر أن ابن جابر الوادآشي كان يمثّل حلْقةً من حلْقات التّواصل العلميّ، بين المغرب من ناحيةٍ، وبلاد الحجاز من ناحيةٍ أخرى، وهو ما يعالجه هذا الكتابُ.

ج- كما أن من اللاّفت للانتباه أن ابن جابر الوادآشي هذا، كان شيخاً لنحوٍ من مائةٍ وثمانين من أهل المشرق والمغرب[38]، كما يقول تلميذُه ابنُ فرحون المالكيّ، الذي أخذ عنه بالحجاز، التي رحل إليها مرتين، وجاور بالحرمين الشريفين وحدّث بهما[39].

د- يُضاف إلى ذلك أن ابن جابر الوادآشي، كان شيخاً وأستاذاً لثلّةٍ من كبار وجهابذة علماء وأدباء الغرب الإسلاميّ، الذين ظهروا في القرن الثّامن الهجريّ- الرّابع عشر الميلاديّ أمثال:

- العالم المتفنّن ابن مرزوق الخطيب التّلمساني.
- الأديب النّاقد والمؤرّخ الثّبت لسان الدّين ابن الخطيب الغرناطيّ الأندلسيّ.
- العلاّمة عبد الرحمن ابن خلدون.
- الإمام ابن عرفة الفقيه التّونسي الشّهير.

هـــ- وفيما يتعلّق بتآليفه وآثاره العلميّة فإنّ كتاب "برنامج شيوخه ومروياته" المعروف بـــ"برنامج الوادآشي" يُعَدّ وثيقةً فريدةً في تاريخ العلاقات الثقافيّة والحضارية، بين المغرب والمشرق الإسلاميّين؛ لأنه قسّم هذا الكتاب إلى قسمين، القسم الأول، جعله لتراجم شيوخه، الذين قرأ عليهم، وروى عنهم، وممّن أخذ عنهم بالإجازة، في كلٍّ من تونس، والإسكندرية، والقاهرة، ودمشق، ومكة المكرّمة، والمدينة المنوّرة[40].

أما القسم الثاني من هذا الكتاب، فقد جعله للكتب والمؤلّفات التي رواها عن شيوخه بالسّند المتّصل إلى أصحابها، مع الحرص على ذكر العلوّ في السّند[41].

ومن أهم شيوخه هؤلاء:

- أبو العباس أحمد بن الغمّاز التّونسي البلنسيّ[42].
- بدر الدين بن جماعة المصريّ[43].
- أبو العباس أحمد الغُبْرينيّ[44]، صاحب (عنوان الدّراية فيمن عرف في المائة السابعة ببجاية).
- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم التّجيبيّ المرّاكشيّ[45].
- أبو زيد عبد الرحمن بن الدبّاغ[46]، صاحب (معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان).
- إمام النحّاة، أثير الدين أبو حيان النّحوي الأندلسيّ[47].

الهوامش:

1- السعيد لمليح: التواصل الفكري والروحي بين المغرب الأقصى والمشرق الإسلاميين (مصر والحجاز) أسسه ومظاهره، من بداية القرن السابع إلى أواخر القرن الثامن الهجريّين، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2005م، ص.187

2-السعيد لمليح: التواصل الفكري والروحي، ص .188

3- المرجع نفسه، ص95 .

4- ابن خلدون: المقدّمة، ص.464

5- يقول فيه تلميذُه صاعدُ بن أحمد الطليطلي: (وكان ابن حزم من أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفةً، مع توسّعه في علم اللّسان، ووفورحظه من البلاغة والشع، والمعرفة بالسِّيَر والأخبار) ابن بشكوال: الصلة 605/2؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء 187/18.

6- وقد شهد له بكثرة التحصيل العلمي تلميذُه أبوعلي الغسّاني ـــ وناهيك به ـــ عندما قال: (ودأب أبو عمر في طلب العلم، وافتنّ فيه، وبرع براعةً فاق بها من تقدّمه من رجال الأندلس) ابن بشكوال: الصلة 974./3

7- ينظر في ترجمته: عبد الواحد عبد السلام شعيب: القاضي عياض مؤرخاً، ص19، هامش رقم (1).

8- وصفه ابنُه أبوعبد الله محمد بأنه كان: (من أئمة وقته في الحديث وفقهه وغريبه ومشكله... فقيهاً حافظاً لمسائل المختصر والمدوّنة ... عاقداً للشروط بصيراً بالفتيا والأحكام والنوازل ... نحوياً، ريّاناً من الأدب، شاعراً مُجيداً .... من أكتب أهل زمانه ... حافظاً للغة والأغربة والشعر والمثل وأخبار الناس، ومذاهب الأمم ... مشاركاً في جميع العلوم). ينظر: أبو عبد الله محمد ولد القاضي عياض: التعريف بالقاضي عياض، ص 4 و5 .

9- السعيد لمليح: التواصل الفكري والروحي، ص.225

10- وقد نقل عن هذا المؤرِّخ السيوطيُّ في (بغية الوعاة) في ترجمة محمد بن إسحاق الخوارزمي التي جاء فيها: (قال الفاسي: كان ذا فضلٍ في العربة ومتعلّقاتها، وغير ذلك، كثير التصدي للاشتغال والإفادة والنظر، وأظنّه أخذ العربية عن صهره إمام الحنفية شمس الدين المعيد، وناب عنه في الإمامة بمكة سنين، ودخل الهند، وعاد إلى مكة، وجمع شيئاً في فضائلها، وفضائل الكعبة ... مات بها يوم الخميس سلخ ربيع الأول سنة سبع وعشرين وثمانمائة). بغية الوعاة 54/1 .

11- السعيد لمليح: التواصل الفكري والروحي، ص.218

12- السعيد لمليح: التواصل الفكري والرّوحي، ص.196

13- المرجع نفسه، ص.182

14- نفسه، ص.227

15- السعيد لمليح: التواصل الفكري والرّوحي، ص .227

16- المرجع نفسه، ص.565

17- نفسه، ص.540

18- إذا كان قد اختصر كتاب (المدارك) كل من أبي عبد الله بن حمّاد السّبتي، وأبي عبد الله محمد بن رشيق الأندلسي، وابن علوان. ينظر: أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج، ص28 .

19- ابن فرحون: الديباج المذهب5/1. ولذلك يقول السّخاوي: (وقد عوّل على المدارك كل من بعده) الإعلان بالتوبيخ، ص.195

20- هما رسالتا أبي الحسن المريني ملك المغرب، والناصر سلطان المماليك.

21- السعيد لمليح: التواصل الفكري والروحي، ص.218

22- المرجع نفسه والصفحة.

23- نقلها المقري في نفح الطيب 156/3-179؛ وينظر ابن خير: الفهرسة 276./1

24- السعيد لمليح: التواصل الفكري والروحي، ص.36

25- المرجع نفسه، ص.33

26- السعيد لمليح: التواصل الفكري والروحي، ص .62

27- أحمد المقري: نفح الطيب 5./2

28- السعيد لمليح: التواصل الفكري والروحي، ص .125

29- ينظر: ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس ق 1 / ص.216

30- ينظر القاضي عياض: الغنية، ص.131

31- هذه الوقعة دارت بين قوات ألفونس الأول (المحارب) ملك أرجون، وبين جيش المرابطين في بلدة كتندة أو قتندة بالأندلس بالقرب من دورقة سنة 514هـ/1120م، وانتهت بهزيمة المسلمين، وسقطت منهم جموعٌ غفيرةٌ في ساحة المعركة، كان من بينهم عددٌ من العلماء، أمثال القاضي أبي علي الصّفدي، وأبي عبد الله بن الفرّاء، وغيرهما. ينظر ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصّفدي ص54 و55؛ المقري: نفح الطيب 204/6؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان 4/ 310؛ وعبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص429، وعبد الواحد عبد السلام شعيب: دور المرابطين في الجهاد بالأندلس، ص127 و.128

32- ياقوت الحموي: معجم البلدان 31./4

33- يقول ابن فرحون في ترجمته: (كان رحمه الله عظيم الوقار، قويم السّمت، قرأ القرآن على أبي جعفر بن الزيات بفاس، ثم رحل إلى المشرق، ورحل إلى الحجاز مرتين، وجاور بالحرمين، وحدّث بهما، وسمع وأسمع، وسمعتُ عليه موطّأ مالك بن أنس، رواية يحيى بن يحيى، في الحرم النبوي في سنة ست وأربعين وأربعمائة لقي أئمة من العلماء والمحدثين، أصبح بهم نسيج وحده، انفساح رواية، وعلوّ إسناد) ابن فرحون: الديباج المذهّب 299/2 و300.

34- (وادي آش، مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة، كبيرة خطيرة تطّرد حولها المياه والأنهار، ينحطّ نهرُها من جبل شلير، وهو في شرقيّها، وهي على ضفّته ... وهي كثيرة التوت والأعناب، وأصناف الثمار والزيتون ... وقصبتها مشرفة عليها، وعليها سور حجارة ...) الحميري: صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار، ص.192

35- ابن فرحون: الديباج المذهب 2/.299

36- الذهبي: تذكرة الحفاظ 4/.1484

37- ينظر ابن جابر الوادآشي: البرنامج، ص.15

38-ابن فرحون: الديباج 2/.301

39- المرجع نفسه، 2/.299

40- ينظر ابن جابر الوادآشي: البرنامج، ص.23

41- المصدر نفسه، ص.23

42- ينظر ابن جابر الوادآشي: البرنامج، ص .38

43- المصدر نفسه، ص .42

44- نفسه، .43

45- نفسه، ص .56

46- نفسه، .60

47- نفسه، 74.